المحاضرة الرابعة : التذوق الفني

يمكن اعتبار عملية التذوق الفني عملية اتصال أو ملائمة بين طرفين : الطرف الأول هو الفنان ممثلا بإعماله الفنية , والطرف الثاني هو المستمتع الذي ينظر إلى هذه الأعمال ويحاول أن يستمتع بها , وعملية التذوق الفني ذات مسؤولية مزدوجة ملقاة على عاتق الفنان والمستمتع , كما أن عملية التذوق الفني لا تتم على مستوى واحد من النجاح بل تأتي على مستويات متفاوتة وهذا الأمر يتوقف على مدى وأدراك وعي كل من يشترك في هذه العملية .

قبل الخوض في ماهية التذوق الفني لابد لنا أولا ان نعرف معنى كلمة فن فقد جاء الجذر اللغوي لكلمة فن **(art)** في اللغة الانكليزية وفي باقي اللغات الأوربية من الجذر اللاتيني **(ars)** والذي يعني المهارة وهذا المعنى يؤكد جوهر الفن , حيث أن الفن يمثل مهارة الفنان في تناول مواضيعه الفنية مستندا إلى ما يجول في فكره وخياله , وبناء على ما سبق نستطيع ان نعرف الفن على أنه استخدام خاص للمهارة والخيال في إبداع وإنتاج موضوعات وبيئات وخبرات جمالية يشترك فيها الفنان مع الآخرين ويشتركون هم بدورهم فيها مع بعضهم البعض , ويمكن أن نقسم الفن إلى ثلاث فئات حسب الرؤية وحسب المرحلة التاريخية وهي :

١- الفن باعتباره محاكاة للطبيعة (أرسطو وفنانو عصر النهضة) .

٢- الفن باعتباره تعبيرا عن انفعالات الفنان (المدرسة الرومانسية في الفن ورؤية الفيلسوفان الايطالي كروتشه والانكليزي كولنجوود) .

٣- الفن باعتباره إبداعا للجمال في ذاته (مدرسة الفن للفن التي يمثلها الكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد) .

عملية التذوق

يقوم الانسان العادي باختبارات جمالية بشكل مستمر من خلال اختياره لنوع ملبسه مثلا أو عندما يعيد ترتيب بيته ونوع الأثاث الذي يستخدمه , ونوع الديكور الملائم وغيرها من الأمور , كذلك فأن اختيارات الانسان تنسحب على ذوقه العام واختياره للأماكن التي يرغب الذهاب لها كالحفلات الموسيقية أو مشاهدة فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني أو عمل مسرحي , أو عندما يختار الانسان نوع القراءة التي تلائمه كأن تكون رواية مثلا أو قصيدة شعرية الخ , وكل هذه الامور تمثل عملية التذوق .

ظهر مصطلح التذوق **(Taste)** في دلالته الفنية في انكلترا خلال القرن الثامن عشر حيث انسحب هذا المصطلح الى مجال السلوك الفني للتعبير عن ملكة العقل التي تقوم بتمييز كل الأخطاء الظاهرة وكل مظاهر الاكتمال الدقيقة في عملية الإبداع الفني والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بملكة الروح التي تتنبه الى مظاهر الجمال لدى أحد المبدعين وتستجيب لها بالشعور والسرور .

والذوق أمر فطري موجود لدى البشر وهو قابل للتثقيف والتهذيب من خلال القراءة والحوار والإطلاع على كتابات أفضل نقاد الماضي والحاضر , وتربط وجهة النظر السيكولوجية المعاصرة عملية التذوق بعمليات الإدراك وما يرتبط بها من اكتشاف للمحاسن والأضداد , وتؤثر عملية التربية والتعليم في عملية التذوق وتفضيل الأفراد للأشياء الجميلة عن ما سواها .

تبدأ عملية التذوق الفني بالإدراك الذي يساعد المتلقي على الإحاطة الشاملة بما يريد أن يعرف عن الموضوع الفني من خلال حواسه المختلفة سواء عن طريق العين او الأذن التي تتلمس مكامن الجمال في الإعمال الفنية المختلفة , وترتبط عملية التذوق الفني بعدة إستراتيجيات ومن هذه الاستراتيجيات :

أولا : ربط تذوق العمل الفني بالمدركات الحسية : مثل النعومة والخشونة والليونة والصلابة وغيرها من المدركات المرتبطة بالحواس .

ثانيا : ربط تذوق العمل الفني بالذاكرة البصرية : مثل ربط بعض صور ومفردات العمل الفني بصور مشابهة في البيئة والطبيعة .

ثالثا : ربط تذوق العمل الفني بالرؤية التخيلية : من خلال حث المتلقي على رؤية بعض الأمثلة المشابهة لمفردات العمل الفني بتسمية ما ينطبع في المخيلة من أشكال تجسدها بعض الصور المعروفة ، مثل أشكال تشبه الحيوانات أو بعض الوجوه والمعالم المتخيلة .

رابعا : ربط تذوق العمل الفني باختلاف زاوية الرؤية : حيث يعمل الناقد على لفت انتباه المتلقي لتذوق العمل الفني من خلال مساعدته لتحديد زاوية الرؤية الصحيحة وتشجيعه على ملاحظة بعض المناظر المعتادة من أكثر من زاوية للرؤية مثل الرؤية الأمامية والجانبية والعمق اللوني وغيرها من العلاقات .

خامسا : ربط تذوق العمل الفني بالتعريفات الذاتية : حيث يقوم الناقد بالبحث عن كلمات يعبر من خلالها عن تعريفاته الذاتية لما يتذوقه من خصائص العمل الفني من خلال إسقاط ما تعكسه الخبرة الذاتية والحالة المزاجية على الخواص الشكلية البصرية مثل القول بأن السحب ذات اللون الأسود تبدو مخيفة أو تشعر بخطر ما أو القول بأن الخطوط المنحنية للأسفل في فروع الشجرة وسط اللوحة توحي بالتهدل أو بالقدم .

سادسا : ربط التذوق بالمقارنة الدقيقة وإظهار الفروق بين مفردات العمل الفني : ويقوم الناقد من خلال ذلك بالبحث عن التفاصيل الدقيقة والتعريف بالاختلافات بين مفردات العمل الفني وعلاقتها بالأشياء الأخرى داخله وتحديد الخصائص والفروق التي تساعد المتلقي على إدراكها فيه .

دور الفنان ومسؤوليته :

١- أعمال فنية ذات طابع مميز : ويقصد بها أن تكون أعمال الفنان ذات طابع مميز وباستمرار وهو أن تختلف أعماله عند النظر إليها عن أعمال غيره من الفنانين , فمثلا عندما نرى أعمال الفنان (فان كوخ) نلاحظ أنها تختلف في مظهرها عن أعمال (هنري ماتيس) حيث تتميز أعمال (كوخ) بالألوان الصارخة والقيم الملمسية الخشنة , بينما تتميز أعمال (ماتيس) بالتلقائية وسهولة الأداء , والاختلاف المقصود ليس اختلافا سطحيا بل هو اختلاف في الكيان ذاته لاسيما وأن العمل الفني ما هو إلا تجسيد محسوس لبعض الأحاسيس والأفكار التي قد تتشابه مع بعضها البعض .

٢- أعمال فنية تعبر عن سمة وإمكانية العصر : ويقصد بها أن يعبر الفنان عن سمة وإمكانيات العصر الذي يعيش فيه , حيث يجب أن تعكس إعماله الفنية صورة الحياة التي يعيشها سواء كان هذا من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية , أو من أي ناحية من النواحي الأخرى طالما كان لها اتصال مباشر أو غير مباشر بحياته الراهنة , فمن المعروف أن لكل عصر من العصور سمة خاصة تميزه عن العصور التي مضت والعصور التي سوف تأتي في المستقبل , فالماضي غير الحاضر والحاضر غير المستقبل , وكل له طابع في أسلوب المعيشة وفي الاتجاهات الفكرية السائدة وفي الإمكانيات المادية التي تحيط بالإنسان .

٣- نظرة شاملة لما يريد التعبير عنه : ويقصد بها أن تكون نظرة الفنان لما يريد التعبير عنه نظرة تتصف بالشمول وأن تكون خبرته بالشيء الذي يريد التعبير عنه خبرة موضوعية , والخبرة الموضوعية لا تعرف حدا أو قصورا مما يساعد على انتشار رقعة الفن بين الناس , وبالمقابل فأن النظرة الذاتية تكون نظرة قاصرة لأنها لا تعطينا إلا صورة ناقصة وتحجب عنا رؤية الأشياء بشمولية .

دور المستمتع ومسؤوليته :

أولا : أن يدرك المستمتع طبيعة العمل الفني وهي :

١- الفن تعبير عن الواقع وليس تسجيلا له .

٢- الفن رموز مجردة ولكنها على صلة بالواقع .

٣- الفن من الناحية الوجدانية أكثر تعبيرا عن الحقيقة من الواقع .

ثانيا : أن يدرك المستمتع مدى العلاقة بين قيمة العمل الفني وبين كل من :

١- الموضوع الذي يتناوله العمل الفني .

٢- الخامة المستخدمة في العمل الفني .

٣- الحجم الذي يخرج عليه العمل الفني .

٤- الزمن الذي استغرقه الفنان في انجاز العمل الفني .

٥- العصر الذي يوجد فيه العمل الفني .

ثالثا : أن يدرك المستمتع مدى التفرقة بين :

١- التطور العلمي والتغير الفني .

٢- الفن الجميل والفن التطبيقي .

٣- الإنتاج الفني اليدوي والإنتاج الفني الآلي .

الفرق بين ما يحدث للمستمتع وما يحدث للفنان

تتميز عملية الإبداع بالابتكار المطلق الذي لا يعرف حدودا بينما عملية الاستمتاع تتميز بالابتكار المقيد , بمعنى أن الفنان في أثناء ممارسة العمل الفني له مطلق الحرية أن يفعل ما يشاء , فعلى سبيل المثال له أن يعمل باللون الأبيض أو الأخضر أو يعمل باللون الأصفر أو الأزرق أو يترك كل هذه الألوان ويعمل باللون الأسود فقط , وله أن يذهب بفرشاته إلى اليمين أو إلى اليسار أو من أعلى إلى أسفل , له كل هذا وأكثر من دون حدود , أما المستمتع فحريته مقيدة أو محددة بحدود العمل الفني الذي أمامه , فإذا كان أمامه لون أخضر أو أصفر أو أحمر عليه أن يعيش من خلال هذا اللون وإذا كان أمامه شكلا مستطيلا أو مثلثا عليه أن يتقيد بتلك الأشكال , أن حرية المستمتع في الابتكار محدودة بحدود العلم الفني الذي هو بصدده , وهكذا تتضح الفروق بين عملية الاستمتاع وبين عملية الإبداع الفني وما عدا ذلك فكل العلميتين تتشابهان في كثير من النواحي التي منها :

١- الحالة العقلية المتكاملة التي تجمع بين الشعور واللاشعور في أطار واحد , الحالة التي ينسى فيها كل من المستمتع والفنان كل ما حوله ما عدا العمل الذي يقوم به , أنها حالة من الاندماج الكامل أو الانسجام التام .

٢- أسلوب العمل نفسه , فكل من الفنان والمستمتع لا يعنيه النظرة التحليلية التي ترى الجزء تلو الجزء الآخر بقدر ما تعنيه النظرة الكلية التي لا ترى سوى كليات وعندما تستقبل معنى أو أحساسا , لا تستوعب إلا معنى وإحساسا كليا .

٣- وتتشابهان أيضا في العائد أو القيم التي يجنيها كل من المستمتع والفنان .

الفائدة التي تعود على المستمتع من عملية الاستمتاع :

بالنسبة للفائدة التي تعود على المستمتع فهي إلى حد كبير تتشابه مع القيم التي يجنيها الفنان , وذلك لأن عملية الاستمتاع ما هي إلا محاولة من جانب المستمتع في أن يعيش الخبرة التي عاشها الفنان من قبل عن طريق تتبع أثار تلك الخبرة وهي العمل الفني نفسه , ومن الطبيعي أن تكون الفائدة التي يحصل عليها المستمتع قريبة الشبه من الفائدة التي يجنيها الفنان , وهذا ما يحدث فعلا

بمعنى أن المستمتع والفنان كل في محاولته يحاول أن يعبر عن بعض أفكاره وأحاسيسه ومشاعره , ومن خلال هذا التعبير يحصل على نوع من الاستقرار أو الاتزان النفسي الذي بدونه يشعر بالقلق وعدم الاطمئنان في حياته , ونتيجة لهذا التعبير أيضا يحصل كل من المستمتع والفنان على نوع من الشعور بالايجابية والثقة بالنفس وذلك لأن عملية التعبير نفسها تتطلب ممن يخوضها تغيرا وتبديلا وابتكارا من شأنه أن يزيد الشعور بالقدرة على العمل والعمل الايجابي الذي بدونه لا يشعر الإنسان بوجوده وكيانه , وإذا كان هناك قيمة أخيرة يمكن أن يحصل عليها كل من الفنان والمستمتع فهي وحدة الفكر والمشاعر أو ما قد نسميه بالترابط الاجتماعي , فالفنان يصنع العمل الفني ويقدمه إلى الناس , والمستمتع بدوره يستقبل هذا العمل وفي هذا اللقاء يحدث نوع من التبادل الوجداني أو الفكري مما يساعد على الألفة ووحدة المشاعر والأحاسيس .